الأستاذ رشيد بن مالك

المحاضرة السابعة في مادة السيميولوجيا

طلبة السنة الثالثة ليسانس

شعبة الاتصال

الخطاب الحجاجي

في

كليلة و دمنة لعبد الله بن المقفع[1]

قراءة سيميائية

1. مقدمة منهجية

تهدف هذه الدراسة إلى فحص نص النصيحة التي أسداها الفيلسوف الهندي بيدبا للملك دبشليم في **كليلة ودمنة**. وقد حاولنا بقدر الإمكان، في أثناء تعاملنا مع النص، تجاوز المعضلة المصطلحية بتبسيط الخطاب النقدي، وتنويع زوايا النظر في النص باستغلال القضايا النظرية السيميائية، دون التقيد الآلي بها، فاقتصرنا على تسخيرها للإصغاء إلى نبضات النص، والتمييز بين أصواته وضبط إواليات اشتغاله، وفك نظامه الحجاجي، والوقوف عند تجلياته الدلالية بعد التأكد من سلامة ما وضعناه من فرضيات والتحقق منها في أثناء التحليل.

قبل أن نشرع في تحليل نص النصيحة، فضلنا أن نخصص مدخلا لقراءة بعض الإنجازات العربية في مجال الدرس السيميائي حول **كليلة ودمنة**. إن اختيارنا لبحوث عبد الحميد بورايو، ومحمد الناصر العجيمي، ومحمد القاضي صادر عن قناعتنا بأنها تعكس بشكل نسبي الجهود المبذولة في سبيل الارتقاء بالنقد العربي من الرؤية المعيارية إلى الرؤية العلمية، والطاقات التي عبأها أصحابها لقراءة وفهم التوجهات المنهجية في تحليل بعض حكايات كليلة ودمنة من منظور سيميائي، واعتمادها موضوعا للممارسة النقدية التي اختلفت من باحث إلى آخر في الرؤية المنهجية التحليلية أولا، وفي التخريجات الدلالية ثانيا.

2. قراءة في بعض الدراسات حول كليلة و دمنة

1.2 الرهان التأويلي في كليلة و دمنة

يشكل التحليل السيميائي للخطاب السردي[2] للباحث عبد الحميد بورايو حدثا نقديا في الجزائر، واستدارة حاسمة في التعامل مع النص السردي. وقد استطاع أن يستثمر من خلاله

الإنجازات البروبية من منطلقات سيميائية للإحاطة الدلالية بحكاية **الحمامة المطوقة** استنادا إلى بنينتها، ووفقا لتقطيع نصي يتصدرها.ولبلوغ هذه الغاية، اختار زاوية نظر نزع إلى أن تكون السردية من خلالها هدفا للتحليل"غير أن هذه السردية لا يمكن القبض عليها وعلى مكوناتها ،كما يتعذر الإمساك بمظاهرها إلا من خلال الخطاب"[3]. على أساس هذه القناعة العلمية، حسم خياره المنهجي بدراسة البنيات الخطابية الآتية :

- الحقل المعجمي
- المقطوعات الخطابية
- التجسيدات الخطابية

إن أهم ما يميز هذه الدراسة ، هو التزام الباحث حدود النص، وإدراك مستوياته، وتمكنه من خلال اشتغاله على اللغة من صناعة خطاب نقدي يوفق فيه بين القيود التي يفرضها الجهاز السيميائي، وتطلعات القارئ العربي إلى نص نقدي ييسر له سبل الاتصال بالمناهج الحداثية، والتواصل معها.

وإذا أمعنا النظر في بعض التفاصيل النظرية للسيميائيات، يمكن أن نشير إلى أن الباحث، في معرض حديثه عن النقص[4]، لم يول أهمية إلى القراءة (الواردة في شكل تقديم للكتاب الموسوم *السيميائيات السردية والخطابية* لجوزيف كورتيس) التي قدمها **گريماس** للمشروع البروبي المحدد في بعض جوانبه بالفعل الذي يعد قاعدة أساسية لتعريف الوظيفة. من هذه المنطلقات، يلاحظ **گريماس** أن الدارس سيقف محتارا أمام التناقض الذي يميز الوظيفتين:" **فإذا كان رحيل البطل، باعتباره شكلا من أشكال النشاط الإنساني،يعد فعلا،أي وظيفة،فإن النقص** (manque) **لن يكون كذلك، ولا يمكن التعامل معه كوظيفة بل هو حالة تستدعي فعلا**"[5].

ومن جهة أخرى، على الرغم من أن الباحث تمكن من درك الإطار التلفظي(دبشليم/بيدبا) لحكايات **كليلة ودمنة** في أثناء تأويله الدلالي لحكايتي **الحمامة المطوقة**، و**الحمامة والثعلب ومالك الحزين**، فإنه في الوقت نفسه عزله من السياق التحليلي واعتبره من خارجيات النص:

"هذا بالإضافة إلى الحكم العام المستخلص من القصة–المثل التي جاءت لتجسد حكما ورد كمقدمة للنص لم ندمجها في التحليل على لسان الملك "دبشليم"وهو يتوجه بالخطاب لروايته "بيدبا" قائلا "**فحدثني،إن رأيت عن إخوان الصفاء كيف يبتدئ تواصلهم و يستمتع بعضهم**

ببعض"[6]. "وهو نفس الموقف الانتقادي الذي جاء على لسان بيدبا الفيلسوف الراوي الخارجي لهذه القصة"[7].

إذا استندنا إلى النص، فإننا لا نستطيع أن نحدث انقطاعا في المتصل الخطابي لـ **كليلة ودمنة**، و ننظر إلى الحكايات نظرة خارجة عن هذا المتصل المنضوي تحت الجهاز التلفظي الذي ترتهن الحكايات إلى وجوده. إن بيدبا ودبشليم حاضران في النص السردي، نستدل على ذلك بعلامات التلفظ التي تحيل عليهما :قال بيدبا:" **زعموا أنه كان بأرض سكاوندجين ...**"

يمكن أن نمثل البنية الشكلية لهذا الملفوظ على النحو الآتي:

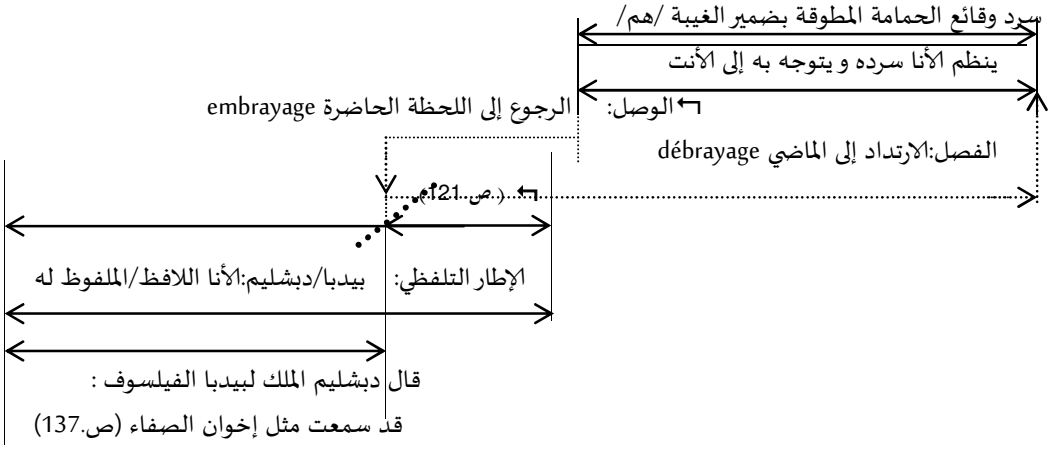

إن بيدبا المحتل لموقع اللافظ (**أنا**) يسرد الوقائع بضمير الغيبة **هم**، ويتوجه من داخل النص بخطابه إلى **الأنت**(الملفوظ له).ولئن كانت الحمولة الدلالية لنص **الحمامة المطوقة** بجميع تفرعاتها مستعصية الإحاطة ولا يمكن أن تسيج في إطاره على نحو كامل، فإن تقصيها في جميع الحالات يظل تابعا لمضمون العقد التلفظي المبرم بين بيدبا و دبشليم :

"و قد أحببت أن تضع لي كتابا بليغا تستفرغ فيه عقلك يكون ظاهره سياسة العامة و تأديبها، وباطنه أخلاق الملوك و سياستها للرعية..."[8] .

و عليه ، فإن تأويل الحكايات"المروية على لسان الحيوان لا يمكن أن ينأى عن التمفصل الدلالي الذي يغذيها بتسريب قيم يحتكم إليها تسيير الفعل السياسي:

ظاهر **باطن**

↓ ↓

سياسة العامة و تأديبها أخلاق الملوك و سياستها للرعية

يتعين علينا أن نشير في نهاية هذه القراءة المختصرة إلى أن البنية العميقة **للحمامة المطوقة** على النحو الذي قيدها الباحث عبد الحميد بورايو لم ترتكز على النتائج المحققة في دراسة البنيتين الخطابية و السردية للنص. وعلى الرغم من أنه انتهى إلى بعض الدلالات الفرعية من خلال تحكمه في المتقابلات الأساسية للنص، وحصره لمختلف الصور التي تعمل على تجلية الوحدات المضمونية، فإنه شيد البنية العميقة على"**مفهوم فلسفي كان سائدا زمن روايتها يقوم على ثنائية الروح/الجسد** "[9]. وتبدو هذه الثنائية مفروضة على النص فرضا، وغريبة عنه ومتنافرة مع ما سبق من تحليل، وليس لها ما يبررها في الحكاية.

وفي النهاية، نشدد على أن دراسة عبد الحميد بورايو لم تتعامل مع السيميائيات باعتبارها غاية في حد ذاتها، بل بوصفها وسيلة مسخرة لفهم الإشكاليات التي يطرحها المعنى المتخفي في الممارسات الإنسانية الدالة باللسان وغير اللسان، كما أن الباحث اشتغل على الخطاب النقدي، وروضه بشكل تفادى فيه كل تعقيد مصطلحي، وجنح إلى التبسيط دون أن يتخلى في صناعة خطابه النقدي عن الإطار السيميائي العام الذي يفرضه مقام البحث .

أما الأستاذ محمد الناصر العجيمي[10]، فقد حاول في إطار التوجه السيميائي ؛ و تحديدا نظرية **گريماس** أن يقدم دراسة تتوخى، في الظاهر، الدقة في ضبط المفاهيم الإجرائية والمصطلحية السيميائية العامة، وخصص لذلك قسما نظريا عرض فيه لمستويات التحليل في النظرية السيميائية. فنظر إليها على أساس أنها حقائق ثابتة دون أن يلزم نفسه مناقشة بعض القضايا الجديرة بالطرح والمساءلة. ثم انتقل في القسم الثاني من هذه الدراسة إلى تحليل حكاية **الأرانب والفيلة**. و هو نص مأخوذ من **كليلة ودمنة**. وقد التزم الباحث خطة واضحة في فحص النص مبنية على تقطيعه وتحديد مستوياته والنظر في بنينته على الصعيدين السطحي و العميق مستعرضا ترسانة من المصطلحات لا نلقى فيها ما يتوافق مع الترجمات التي وضعت للمصطلح في الخطاب السيميائي العربي بحجة إقرار الباحث نفسه بمواجهة "**القدر الكبير من المصطلحات بمجهود فردي أساسا**"[11] . إن هذه الطريقة في التعامل مع المصطلح التي تجري في الاتجاه المعاكس تماما للتحري الجماعي باعتباره السبيل الوحيد لترقية البحث، ستؤدي من دون أدنى شك إلى تضخم لا يساعد في جميع الحالات على إقامة وصلة علمية حقيقية بالقارئ.

وانتهى العجيمي في خاتمة البحث إلى أن القارئ "لا يحتاج إلى نفاذ رؤية–ليتبين من خلال الفيلة– صورة الحاكم المتسلط الطاغية. والأرجح أن المعني هو أبو العباس أو أبو جعفر المنصور الذي

يتهدده مصير شبيه بمصير الفيلة، مصير يؤول إليه كل من أسس حكمه على"الظلم"، خارقا بذلك العقد المنظم لعلاقات الحاكم بالمحكومين، محدثا تصدعا في توازن الكون المحكوم بقواعد أزلية"[12].

إنه يتعامل مع عبد الله بن المقفع كما لو أنه كاتب النص، فيسقط تأويله على المجتمع العربي الإسلامي وينظر من خلال النص إلى العلاقة التي تربط الحاكم بالمحكوم في هذا المجتمع. يمكن أن يستغل، منهجيا هذا الإسقاط، في مناقشة اختيار عبد الله بن المقفع لترجمة نص تعمل مضامينه، انطلاقا من تحليله، على تجلية العلاقة بين الملك والرعية في **المجتمع الهندي**.و يتجه التأويل بعد ذلك إلى إدراك القيم من حيث القواسم المشتركة بين المجتمعين في إشكالية تسيير الفعل السياسي.

وإذا نظرنا في حكاية **الأرانب والفيلة** باعتبارها جزء من الأجزاء السردية التي تتشكل منها **كليلة ودمنة**، فإنها على المستوى التداولي مسخرة لإقناع ملك الغربان بصحة الطرح العقلاني الذي ينزع إليه الغراب للرد بإعمال الفكر والروية على الهجمة الشرسة التي قامت بها جماعة البوم. إن النزوع العقلاني بوصفه قيمة أساسية في معالجة الغزو الخارجي أفضى إلى تحقيق الانتصار العسكري وإبطال مفعول كل قوة خارجية تطمح إلى زعزعة الاستقرار الداخلي لمجتمع الغربان. ينبغي أن نرقى بالقيمة الأساسية في هذه الحكاية على المستوى التداولي ونضعها في قلب الحوار الدائر بين الملك دبشليم والفيلسوف بيدبا الذي يسعى إلى أن يمارس فعله الإقناعي على المَلِكِ .و تعمل العملية الإقناعية، كما سنرى ذلك لاحقا، على تجلية القيم الأساسية المسجلة على المستوى العميق لحكايات **كليلة ودمنة** التي تجري مجرى الخطاب الحجاجي المسخر لإقناع الحكام بأهمية الحوار والمشاورة في المسائل الإستراتيجية التي تخص شؤون الرعية ومستقبل البلد.

وفي اتجاه مخالف لتأويل محمد الناصر العجيمي، يذهب محمد القاضي في نهاية تحليله لـ **مثل الأسود وملك الضفادع** من **كليلة ودمنة** إلى أن الوضع يتسم منذ البداية بالتعقيد :"رجل ينتمي إلى أمة مغلوبة ،يغير انتماءه إلى الأمة الغالبة، ثم ينقل من أمته القديمة هذا الكتاب إلى أمته الجديدة. والنص ينضح بهذا الواقع جيئة و ذهابا. فهو في لغة الغالب، ظاهره نصحه له و تثبيت لأقدامه، ولكنه من أصل فارسي باطنه تهكم و تحيل وخداع "[13].

إن هذا التأويل منزاح تماما عن النتائج التي أفضى إليها التحليل الذي قدمه محمد القاضي لحكاية **الأسود وملك الضفادع**. وتعد هذه النتائج محصلة لتحليل تقف وراءه مقاربات منهجية متنوعة ومتضاربة أيضا، ومختلفة من حيث الأهداف المسطرة ومفتقدة إلى إشكالية بحثية واضحة. ينظر الباحث في بداية الأمر في ملفوظ الحالة، فيضبط من منطلقات سيميائية علاقات الفاعل الفصلية والوصلية بالطعام ، ثم يزخرف ذلك بخطاطة عاملية مضطربة، مفتقد إلى الأسهم،و بالتالي إلى معنى. ولكنه سرعان ما يغادر البنية السطحية والخلفية النظرية السيميائية، دون تقديم أي تبرير منهجي،

ليدرج بحثه في إطار آخر مغاير تماما، فيتحدث عن الإحداثيات الزمنية وأساليب القص و أنماط الرؤية في النص من منظور جيرار جينيت Gérard Genette. ومن منطلقات المستوى الدلالي، يخرج من النص ليثير قضايا مفتعلة، متعلقة بانتماء عبد الله بن المقفع، ونواياه المبيتة. و يكفي أن نلقي نظرة في مقدمة كتاب **كليلة ودمنة** لندرك الأسباب التي حركت الملك كسرى أنو شروان لطلب هذا الكتاب النفيس. وإذا وقع اختيار عبد الله بن المقفع بوصفه رجلا مثقفا واعيا بالأبعاد السياسية، على هذا الكتاب، فإننا نتساءل عن المصدر الذي أهل الباحث لامتلاك معرفة دقيقة بباطن عبد الله المقفع المتسم **بالتهكم و التحايل و الخداع**.